# الرجعية وخطرها في مجال العلم والمعرفة

لا ريب أن أي تحرك رجعي، مؤشر تخلف، ونذير تناقص وضمور.

ولكن أخطر الحركات الرجعية، تلك التي تظهر في مجال العلم والمعرفة!... ذلك لأن أي جمود أو تراجع على هذا الصعيد، يشكّل عاملاً كلياً كبيراً للخلط أو الخطأ، ومن ثم للتخلف، في جوانب متنوعة شتى من الحياة الفردية والاجتماعية، سواء في النطاق الفكري أو السلوكي.

ولا ريب في أن كثيراً منا يحمل أفكاراً تعاني من هذا التقوقع الرجعي الخطير!.. إن فينا من يرفع لواء العلم، ويصيح بألفاظه ويهدر بكلماته، ولكنه واقف في مكانه لا يتحرك، لا يركب قطار العلم ولا يتحرك مع اتجاهه!..

يعيش بتصوره وقناعاته مع كثير من نظريات القرن السابع عشر التي انبثقت من خصام الكنيسة مع العلم ورجاله، ذلك الخصام الذي أدى إلى ثورة العلم على الكنيسة، ثم أدى إلى ردّة فعل عند العلماء حملتهم على القول بأن الكون كله من مادة نشأ، وأن كل ما فيه يمكن أن يفسر على هذا الأساس. ومن ثم فلا داعي إلى افتراض وجود خالق قديم ينبع وجوده من ذاته. لأن سرمدية المادة أغنت عن ضرورة الخلق وتدخل الخالق!..

obeikandl.com

إنك لتصغي اليوم إلى أحدهم، وهو يتحدث في العلم، ويخوض في موضوعاته، فلا تشك في أنه يعيش بأفكاره وتصوراته داخل العصور الوسطى، حيث النظرة العلمية القديمة المنحصرة في الدائرة المادية المجردة، والتي كانت نتيجة ردِّ فعل إزاء الفلسفة المدرسية المسيحية التي كانت سائدة آنذاك.. فهو يقوم ويقعد بالتحدث فيها والدفاع عنها، وترديد الحجج القديمة ذاتها التي كانت تدور على الألسن أيامها. وكأن الفكر الإنساني العالمي لا يزال حبيس تلك التصورات إلى يومنا هذا!..

ومن المعلوم لمن يتتبع رحلة الفكر الإنساني على طريق العلم والمعرفة، أن تلك النظرة العلمية وصلت فيما بعد إلى مرحلة من الذبول، بل إلى حالة من الجمود والتخبط الفكري حدت بعلماء عصرنا اليوم إلى تجاوزها والإعراض عنها.

فلقد مرت عصور وأجيال، والعلماء يحاولون جهدهم أن يدعموا التصور القائل بأن المادة الكونية مركبة من ذرات، وأن الذرة أصغر نواة مادية، فلم يكن ليجتمع لديهم من الأدلة العلمية إلا ما يخالف ذلك التصور ويناقضه، وجاءت قوانين الفيزياء الحديثة لتقطع آخر أمل في إمكانية الدفاع عن ذلك التصور وحمايته.

ولقد توالت أزمنة وأجيال، والعلماء، أو جلّهم، يحاولون جاهدين أن يدعموا التصور القائل بأن كلاً من العقل والوجدان

ليس إلا أثراً متميزاً للنشاط العضوي في كيان الإنسان أو للغريزة الجنسية كما زعم فرويد، ولكن لم يستطع أي منهم أن يحدد كيفية انبثاق العقل من المادة العضوية، إلا أنهم توقعوا أن يأتي المستقبل بالجواب.. فلما جاء القرن العشرون بكشوفه الرائعة الجديدة عن الفزيولوجيا، كانت المفاجأة المذهلة أنها لم تُجب عن السؤال المتعلق بكيفية انبثاق العقل من المادة، وإنما جزمت بأن العقل شيء آخر مستقل عن المادة. وأعلن السير تشارلز شرنغتون الذي يعتبر مؤسس فزيولوجيا الأعصاب الحديثة، في نهاية بحوثه الرائدة في الجهاز العصبي والدماغ، قائلاً: (وهكذا ظهر فرق جذري بين الحياة والعقل، فالحياة هي مسألة كيمياء وفيزياء أما العقل فهو يستعصي على الكيمياء والفيزياء)[1].

وكان جلّ علماء الغرب فيما مضى يقررون أن الزمان جوهر ذاتي مستقر، فحتى لو انعدمت الموجودات كلها، فإن هنالك جوهراً متدفقاً في استمرارية مطلقة، هو الزمان. وكذلك القول في المكان... فلما جاء أنشتاين عام ١٩٠٥بنظرية النسبية الخاصة، التي أصغى إليها علماء الغرب بذهول، ثم بإعجاب ويقين، قادت تلك النظرية الراسخة إلى التخلّي نهائياً عن فكرة الزمان المطلق والمكان المطلق فقد تبين أن الزمان ليس إلا بُعداً

(١) العلم في منظوره الجديد: روبر م. أغروس، وجورج ن، ستانسيو، ترجمة كمال خلايلي. ويقصد شرنغتون بالحياة استمراريتها التي تستند إلى التغذية الذاتية واستقلاب الخلايا والنمو، ولا يقصد بالحياة جذورها التي كانت - ولا تزال - مجهولة.

obeikandl.com

رابعاً للمكان، وأن المكان ليس إلا أثراً للحركة المتعلقة بالشيء المتحرك[١].

ولقد أدت هذه التطورات على صعيد الفكر الفلسفي والنظرة العلمية المتجددة، إلى الوقوف وجهاً لوجه أمام حقيقة ماثلة لا مجال لتجاهلها أو إنكارها، هي «الغائية» الممتدة في جذور الأشياء والمتغلغلة في حركاتها كلها.. كما أدت هذه الحقيقة بدورها إلى نهاية لا مرد لها ولا محيد عنها، هي وجود الله عز وجل. وهكذا فقد كان على العلم، في أحدث ما انتهى إليه من الحقائق، أن يبحث في مسألة وجود الله بجدٍّ، على أنها الثمرة الحتمية لتلك المكتسبات العلمية الحديثة التي نالها الإنسان في رحلته الطويلة على درب العلم والمعرفة. وهكذا فإن البحث في هذه الحقيقة لم يَعُدْ، كما كان يتوهم أصحاب التصورات القديمة، تجاوزاً لحدود العلم وخوضاً في غيبياتٍ وأوهامٍ لا سند لها ولا دليل عليها، بل الذي أثبته العلم الحديث أن المثول أمام هذه الحقيقة أمرٌ لا مناص من مواجهته لكل من يتابع حركة العلم ويسير مع اتجاهه.

ولكنك تنظر فتجد اليوم، على الرغم مما أوضحنا، أناساً يتقوقعون في أعماق كهوف قاصية وقديمة، حيث يجترّون إلى اليوم النظرة الميكانيكية المادية إلى الكون والإنسان والحياة، ويعيشون مع هياج العصور الوسطى ضد الكنيسة وأفكارها

(١) هذا هو معنى الزمان عند العلماء المسلمين، وهذا هو قرارهم قبل أنشتاين بما لا يقل عن خمسة قرون.

التقليدية المحافظة، ويرددون مع (فرويد) أطروحته القائلة بأن الأفكار الدينية نشأت من ضرورة حماية الإنسان نفسه من قوة الطبيعة المتفوقة والساحقة!.. هذا، وقطار العلم يغذ السير متجاوزاً هذه الفرضيات والتصورات منذ أمد طويل. بيد أن هؤلاء الناس لا يزالون قابعين في أعماق تلك الكهوف جاهلين أو متجاهلين حركة البحث العلمي، معرضين عن الجديد الذي عفَّى على آثار الكثير من الفرضيات القديمة.

من العسير جداً أن نفترض جهل هؤلاء الناس بسير العلم وتطوره، فهو أمر واضح لا يخفى على أي مثقف. إذن، فما الذي يشدهم إلى الوراء ويغريهم بالبقاء بين بلاقع ذلك الماضي الموحش؟ لا نشك في أن هذا الذي يحملهم على ذلك إنما هو الدافع الذرائعي!..

إنهم يرفضون - لسبب ما، وما أكثر الأسباب - مواجهة واقع يُلْجئهم إلى اليقين بوجود الله، ومن ثم إلى اكتشاف أن الدين حقيقة موضوعية ثابتة.. فما الذريعة للفرار من هذه المواجهة؟ إن الذريعة الوحيدة هي إدارة الظهر إلى الخط الصعودي الذي يتحرك نحوه العلم، والسيرُ في الاتجاه المعاكس، أو الوقوفُ دون أي تحرك على أقل تقدير.. وبذلك يتاح لهم أن يحجبوا أنفسهم عن محرجات الحقائق العلمية الحديثة بستائر النظريات العلمية القديمة.

ولعل من أبرز الأمثلة على مواقفهم الذرائعية هذه، بيعتُهم الأبدية لنظريات التطور.

فعلى الرغم من أن ملف هذه النظريات كلها قد طُوي وأقصي عن الاعتبار، بدءاً بنظرية لامارك.. إلى النظرية الداروينية.. إلى الداروينية الحديثة - إلا أن هؤلاء الذين يديرون ظهورهم للجديد ويولون وجوههم شطر القديم، يظلون في عناق مستمر لتلك النظريات أو ما يتخيرونه منها، وكأنهم لا يعلمون أن ظهور قانون الكروموزومات والشريط الوراثي قد قضى على تلك النظريات من جذورها!.. أفيجهلون حقاً هذا الكشف العلمي الذي أضحى في متناول أي مثقف؟

لا شك أنهم يعلمونه مثل غيرهم... ولكنه الموقف الذرائعي الذي يفرض عليهم التجاهل!..

إن رفض مسألة الإيمان بالله مطلب أساس ترنو إليه نفوسهم، بقطع النظر عن البراهين العلمية ومؤشراتها وتطوراتها... وإذا كانت نظريات التطور على اختلافها تشكل الصيغة العلمية لهذا الرفض وتحيطه بهالة من المؤيدات، فما أحراها بأن تكتسب القدسية المطلقة وتنال الحصانة ضد أي نقد علمي مهما كانت قيمته!...

وما أكثر من يتمتع مِن هؤلاء الذرائعيين، بوجهين ومنطقين حيال نظريات التطور هذه:

إذا خلا بعضهم إلى بعض سخروا منها وأوسعوها نقداً كما يقول الآخرون.. حتى إذا وُجِدَ أحدهم بين جمع من الطلبة أو ظهر في لقاء مفتوح، عادوا فوقفوا منها موقف الإذعان

والتقديس، لتكون حجر عثرة - باسم العلم - في طريق الإيمان بالخالق عز وجل، ولتكون لسان معارضة لخبر الله عن نشأة الإنسان ومبرراً للإعراض عن شرائعه ووصاياه.

وإذا أعرضنا عن منطق الحق من حيث هو، وجنحنا إلى الرأي القائل بأن أحقية تصرف ما وبطلانه ينبثقان من نتيجة الربح والخسران، فلنتساءل:

من الخاسر ومن الرابح من وراء هذا التقوقع الرجعي تحقيقاً لهذا الهدف الذرائعي؟

هل يمكن أن يكون هذا الموقف هو الفائز بالربح... أي ربح، ومهما كان حجمه ونوعه؟

لو كان الجواب عن هذا السؤال: نعم، إذن لَقُلنا: فليصمد هذا الرجل، ومعه أمثاله، عند موقفه هذا ما شاء أن يصمد، وليقيد نفسه وعقله بقيود التخلف والرجعية ما طاب له ذلك، وليُضَحِّ بمنطق الحق كما يشاء، فإن له من الربح الذي يناله على ذلك ما يسوغ ذلك كله.

ولكن هل من عاقل يجهل أن الذي يخاصم الحقيقة إنما يخاصم من خلال ذلك ذاته؟ وأن الذي يتجاهل متن الطريق الذي يسير عليه أو يعفّي ويهيل الأتربة عليه، هو أول من يقع ضحية التنكب عنه ويضِلُّ بين الأدغال المهلكة؟

وما العلم في حقيقته؟ إنه ذلك المصباح الذي ينير السبيل أمام عقلك في موضوعية وحياد، ويريك كل شيء على حقيقته دون

أي تدخل منه فيه ودون أي تلاعب به أو تزييف له. ولذلك قالوا في شرح تعريفه: إنه صفة كاشفة، لا مؤثرة.

فإذا أنبأك العلم، من خلال حديثه عن قصة الكون والإنسان والحياة، بأن لهذه الموجودات رباً وخالقاً، فقد عَرَّفك على واقع كوني، ليس له من يدٍ في ستره أو تغييره، وأيقظ عقلك إلى ما قد تتحمله من مسؤوليات بصدد هذا الواقع. فما جدوى تجاهلك لنبئه وإعراضك عن حديثه؟ وما أثر ذلك في تغيير واقع لا قبل لك فيه، وما أثر العلم الذي هو كما قلنا صفة كاشفة، في أي تبديل فيه أو تحوير منه؟

أرأيت إلى المصباح الذي استوقدته في طريقك، فكشف لك عن وادٍ سحيق أنت مقبل عليه، أفيغير من هذه الحقيقة الواقعة شيئاً أن تطفئ المصباح لتغيب صورة هذا المنظر المرعب من عينيك؟ وهل غياب الصورة برهان على تغير الواقع؟

تُرى أيهما ينبغي أن يتغلب على الآخر: المزاج على العلم أم العلم على المزاج؟

وهل من عاقل يحتاج إلى أن يجعل من هذا التساؤل أطروحة للنظر والبحث؟

ولكن أصحاب الأمزجة يظنون أنهم قادرون على تغيير الحقائق إن هم نجحوا في تغليف أمزجتهم بعناوين العلم وألفاظه. فالمهم أولاً وآخراً صنعة التغليف لا فهم الحقيقة!..

ونعود لنؤكد ما قلنا: ليس المهم أن نتخاصم في اختيار إحدى

القيادتين لحياتنا؛ العلم الموضوعي أم المزاج النفسي، إنما المهم أن نقف عند رصيد الربح والخسران.

إن بوسعي أن أزيف كل الحقائق العلمية الحديثة الدالة على وجود الله عز وجل، وأن أصف المثول عند هذه الحقيقة بأنه استسلام للغيب وتجاوز لحدود العلم، ثم أبرر بذلك لنفسي البقاء في أوهام العصور الخالية والتقوقع بين تلك الافتراضات التي تجاوزتها الحقائق العلمية الحديثة الثابتة... أقول: إن بوسعي أن أزيف كل هذه الحقائق بما شئت من أغلفة الشعارات والألفاظ.

غير أن ذلك لن يغير من حساب الربح والخسران أبداً، ولن يبدّل من الحقيقة التي تتربّص بي شيئاً.

إن الغيب الذي أترفع بحديثي عنه، يحيط بي من سائر الأطراف... بل إنني على موعد معه بعد سنوات أو أيام... ومصباح العلم يوقفني على حدوده وينبّهني إلى مصيري معه وإن لم يستطع أن يكشف لي عن دخائله... فأي فائدة أجنيها لنفسي أو لمجتمعي بإغماضي العين عن هذا كله، والارتماءِ في أحضان المزاج، ثم تزييف الحقائق كلها وتلوينها بالشكل الذي يروق لهذا المزاج؟

والسؤال الذي قد يطرحه بعضهم هو: إذا كان العلم يقف بي عند حدود الغيب، دون أن يُدخلني في غماره ويريني شيئاً من واقعه، فكيف أتعامل معه؟ واعتماداً على أي برهان أفهمه وأومن بتفاصيله؟

والجواب أن مهمة العلم تقف عند حدود إيقاظ العلم إلى أن عالم الغيب حقيقة ثابتة وليس وهماً باطلاً، ثم إن العلم يسلمك - لمعرفة دخائل هذا العالم المجهول - إلى النبأ الصادر من خالق هذا الكون ومالكه، ورب هذا الغيب ومنظمه.

فإذا عرفت هذا النبأ، وتبينت بالمنهج العلمي دلائل صدقه، ثم أصغيت إليه بتدبّرٍ، عرفت من خلاله قصة الكون والإنسان والحياة، وتبينت هوية الإنسان ومهمته فوق هذه الأرض، وأدركت البداية التي انطلق منها والنهاية التي هو ماضٍ إليها، فتكاملت لك من ذلك معرفة عالَم الغيب والشهادة، بمقتضى المنهج العلمي الدقيق، وعندئذ يتاح لك أن تسير في فجاج الأرض على بصيرة وهدى، وأن تقطع رحلة الحياة على ضوء خُطة مرسومة، فلا تفجؤك منها أحداث، ولا تباغتك منها أسباب ألم أو ندامة.

هذا النبأ الذي يتمثل في الوحي الإلهي الذي أبلغه الله عباده عن طريق الرسل والأنبياء، وكان آخرهم محمداً عليه الصلاة والسلام، وما تضمنه هذا الوحي من أخبار وأحكام وعظات، هو المعنيُّ بكلمة الدين الحق الذي تنزل، شرعةً ومنهاجاً، من عند الله عز وجل، للناس كلهم وفي سائر الأمكنة والعصور. والمنهج العلمي المتكامل إنما يتألف من عقل ونقل، لا يستقل الواحد منهما عن الآخر على طريق السعي إلى معرفة حقائق الكون والإنسان والحياة. فلا تتحرك طاقة العقل إلا بضياء من

أشعة النقل... النقل الذي ثبت صدقه طبق المنهج العلمي المرسوم.

وعن هذا النور، وأهميته ووظيفته، يتحدث البيان الإلهي قائلاً: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١٥-١٦].

فما الإشكال الذي بقي بعد هذا؟

بقي أن نسير مع موكب العلم، ونتخلّى عن قيود الأمزجة والأهواء.

وإن تعجب، فإنه لعجيب حقاً أن تجد من يعدّ السير مع موكب العلم قُدُماً انغماساً في الظلام، وأن التقوقع في أوهام الجهالة الماضية تمتع بالنور والضياء. ولكن عندما تعلم أن الحكم عند هؤلاء إنما هو للأمزجة لا للعقل والعلم، يزول العجب.

obeikandl.com